حنجرة

للدكتور محمد عوض محمد

أشهد ان الطبيعة قد تمنح ، فتسرف فى المنح ، وتعطى فتجزل العطاء وتنسى نفسها أحيانا ، فتكيل السعادة لمن رضيت عنه بمكيال هائل، وتبذير منقطع النظير . وكان ذلك شأنها يوم أفرغت على الرجل العجيب (أنطون سو كيلوف) أسجال الهبات : بأن منحته تلك الحنجرة الثمينة الرائعة !

أجل وان المرء لتأخذه الدهشة عن يمينه وشماله، ومن ورائه وأمامه ، ومن فوقه ومن تحته ، حين يفكر فى الوسائل المختلفه العديدة ، التى تتوسل بها الآلهة ، لكى ترفع من تحبه على الناس درجات ، وتحلق به فى ملكوت السموات : — ترضى عن هذا فتمنحه المال عن وفر وعن سعة ، وتحب هذه فتكسوها أثواب الجمال: ثوبا فوق ثوب — كأنها ورق الكرنب — ويحلو للآلهة ان تنعم على ذاك فاذا هو ذو وجاه عريض طويل، عميق غليظ.

ولكن أغرب شىء تهبه الالهة هو من غير شك — تلك الميزات الجسدية : تلك القطع من اللحم والعظم والغضروف والجلد — يجرى فيها الدم احيانا ؛ وأحيانا لا يرى فيها دم مطلقا . وطورا يكسوها الشعر ، وكثيرا ما تكون صلعات عارية من الشعر — تلك الاجزاء الجثمانية ؛ التى يحسبها الجهال من مصادفات الولادة ، أو من غلطات الولادة، وفى الواقع وفى الحق هى السر الباتع الذى يحرك الفلك، وتدور لها الكرة الارضية من الغرب الى الشرق.

وما على الذى يشك فى صحة هذه الدعوى ، او يريد ان يتهمنا بالغلو والمبالغة ، إلا ان يلقى نظرة يسيرة على التاريخ المكتوب وغير المكتوب ، ويكفى ان يلقى النظرة على عجل وهو مغمض العينين ، ليرى كم من صلعة لامعة قد ساست الممالك ، ودوخت الجيوش ، وكم من ذقن غليظ استطاع اخضاع الاقطار وتسخير كل جبّار . وهانحن نسوق للقارىء أمثلة لا تحتمل الشك أو الانكار .

هذه كيلوباطره ! بأى سلاح وبأية قوة استطاعت ان تخضع يوليوس قيصر ، وتلفه حول إصبعها الخنصر ؟ أبالقنابل والاساطيل ؟ أما بالجيوش والدبابات؟ أم بالغازات الخانقة وغير الخانقة ؟ لا بهذى — لعمرك — ولا بتلك . بل بقطعة أنف مستدق مستطيل : خارت أمامها عزمة العاهل الرومانى الهائل ، الذى فتح الغال وبلاد الاسبان واستولى حتى على بريطانيا العظمى — التى لم تكن عظمى فى ذلك الوقت .

ثم شمشون : الجبار شمشون ، الذى استطاع أن يقتل ألفا من الفلسطيّين وما بيده سلاح سوى عظمة الفك الاسفل لحمار تفَقَ حديثا، والذى استطاع أن يقبض على العمودين اللذين يمسكان الهيكل الأكبر — وقد احتشد فيه أعداؤه آلافا مؤلفة — أمسك عموداً باليمين ، وعموداً بالشمال . ثم مال بالعمودين وهو يقول : « على وعليهم يارب ! » فاذا الهيكل يتداعى والسقف ينقض بمن عليه ، والبناء يندك بمن فيه . واذا الآلاف المؤلفة تقبر ، بما فيهم دليلة الخائنة الماكرة !

ألا رحم الله شمشون ! أنّى جاءته كل هذه القوة وهذا الجبروت ؟ ذلك هو السر الخطير ، الذى أدلى به الى دليلة الخائنة ، حين أنبأها أن قواه كلها كامنة فى تلك الشعرات التى نبتت فى رأسه كما تنبت الاشعة فى رأس الشمس .

وهكذا كان عضو بسيط من أعضاء الجسم سبباً فى تحويل سطح الأرض ، وفى قلب مجرى التاريخ . . .

اذن لماذا نعجب من أن الآلهة حينما ارادت أن تغدق النعم على (أنطون) لم تزد على أن وهبته حنجرة ؟ . لم تهبه مالا ولا عقلا ، ولا ذكاء ولا فهما ، ولا طرفا ناعسا ، ولا وجها وسيما . بل كل ما منحته وحبته به : حنجرة .

***

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

هذا جائز فى عصام المذكور . أما (أنطون سوكيلوف) فلم تكن له نفس تستحق الذكر ، ولم يكن شجاعا ولا هماما ولا يعرف كرّا ولا إقداما . ولم يكن صاحب علم ولا جاه ، بل صاحب حنجرة فحسب . يملكها وتملكه ، وليس له من حطام الدنيا شيء سواها ، وليس لها من حطام الدنيا شيء سواه وكانت هى سر سعادته ؛ واستطاع هو أيضا أن يجعلها سعيدة مُنَعَّمَةً .

ليس على فضل الاله من حَرَجْ
ان شاء ضاق الأمرُ ، أو شاء انفرجْ
ويدرك العلياءَ من به عَرَجْ
وترتقى حنجرةٌ أعلى الدَّرَجْ !!

* * *

ان سر النجاح فى الحياة هو ماقاله سقراط : ان تعرف نفسك . وهكذا فعل انطون . فقد خلا الى نفسه يوما ، وجعل يجهد فكره الكليل فى معرفتها ، وفى الكشف عن أمرها . لعله ان يرى فى ركن من أركانها كنزا مخبوءا ، أو قوة مدفونة . فهداه طول التفكير ، والتدبير الكثير ، الى ان له حنجرة ليس لها فى العالم نظير . أجل وانها لجديرة بأن ترفعه ويرفعها الى المقام الاسمى والسّماك الاعلى . وان ينفض بواسطتها غبار الفاقه الذى يوشك ان يقبره ويقبرها .

وكانت ساعة إلهام أدرك فيها أنطون أن برلمان انكلتره — أبو البرلمانات جميعاً — هو ميدانه الوحيد وميدان حنجرته العزيزة . . . عجبا كيف لم يرق الى هذا الكشف الهائل من قبل ، فيقضى على عيش الضنك والفقر الذى لازمه طوال هذه السنين ؟

* * *

وفى مساء ذلك اليوم الخطير كان أنطون جالسا — وحنجرته — إلى رئيس (المحافظين) يحدثه حديثا شائقا طليا . والصوت يدوى من حنجرته دويا — ولولا أن الريح فى ذلك المساء كانت تهب من الجنوب ، لسمع أهل فرنسا صدى تلك الحنجرة تنبىء الساكنين على ضفاف السين . أن على ضفاف التامز رجالا .

وأدرك رئيس المحافظين — ويا سرعان ما أدرك ! — أى كنز قد ظفر به ، وأى ذخر ثمين قد قدمته الآلهة له ولحزبه ! انهم بفضل هذه الحنجرة الرَّعْدِيَّة لن يلبثوا طويلا حتى يتربعوا على دست الحكم ، ويتحكموا فى الدولة التى لا تغرب عليها الشمس .

ولم يبرح أنطون مجلس الرئيس إلا وقد حمل فى صدره — وفى جيبه — ألف دليل على أن نجم نحسه قد أودع بطن الثرى وأن نجم سعده قد أشرق فى السماء لامعا صاعدا

* * *

كان أنطون من رعايا الروس ، وقد حاول السنين الطوال أن ينال الجنسية البريطانيه ، فلم تلق جهوده الا الفشل . ان الجنسية البريطانية أجل وأثمن من أن تمنح للصعاليك أمثاله أما اليوم فقد جاءته تلك الجنسية تجرر أذيالها ، وهى تمشى على استحياء ، تَزَلَّتْ عليه من المحل الأرفع من بعد طول تَعَزُّزٍ وتَمَنُّعٍ ،

وفتحت بين يديه نوادى المحافظين ، المفرطين فى فى ارستقراطيتهم ، وفى عزلتهم . فجعل ينشاد امام وحنجرته التى كان صداها يدوى فى تلك الحجرات الهائلة ، فتملىء بها الآذان وتميل نحوها الاعناق .

ولم تمض أسابيع قلائل حتى أخليت له دائرة من دوائر البرلمان ، وحتى أقسم يمين الطاعة للملك ولدستور الدولة العظمى التى قلما تغرب الشمس عليها .

هنالك بدأت معجزته الطائلة تقرع الاسماع ، وتأتى بكل إبداع ، يوم تبوأ مقعده فى (وستمنستر) وقذف على الحنجرة العزيزة كوفية من الدمقس الخالص ، برّأ بها ، وعطفاً عليها . وهى بهذا لعمرى جديرة بعد أن أصبحت ينبوع ثورة ، ومبعث قوة وصولة ، ورشاد حزب ودولة .